



مجلة علم النفس

مجلد ١

فبراير ١٩٤٦

عدد ٣

المنهج التكاملي وتصنيف الوقائع النفسية

للدكتور يوسف مراد

سكرتير عام جماعة علم النفس التكاملي

- (١) التعليل العلمي والتصنيف . (٢) التصنيف واللغة . (٣) التصنيف التقليدي للظواهر النفسية . (٤) التصنيف الثلاثي في كتب علم النفس العربية الحديثة وأوجه الاعتراض عليه . (٥) المنهج التكاملي . (٦) التصنيف التكاملي للوقائع النفسية .

١ — التعليل العلمي والتصنيف

لا يهتم العلم بالوقائع من حيث هي وقائع فحسب ، بل من حيث هي وقائع منظمة تربطها علاقات معينة ثابتة . ولا يتم التفسير العلمي لمجموعة من الوقائع إلا بإدخالها في نظام من العلاقات أو من الشروط المتلازمة ، أو بعبارة أخرى في نظام من المراجع . وموقف العالم شبيه بموقف المستكشف الجغرافي الذي يعين على الخريطة موضع البحيرة التي اكتشفها مبيناً أبعادها من مواقع أخرى معلومة ، وموضحاً طبيعة البحيرة وخصائصها في ضوء معلوماته السابقة لخصائص المنطقة التي توجد فيها البحيرة .

ولا يكون العالم أبداً بصدد واقعة واحدة منعزلة ، بل بصدد شبكة من الوقائع . وليس وجود الواقعة المنعزلة سوى وجود افتراضى مجرد . وكذلك يكون الإنسان في حياته العملية بصدد مجموعات من الظواهر والوقائع تختلف درجة تنظيمها باختلاف الأغراض التى يرمى إليها . فهناك تنظيم عملى يقتضيه التطبيق المباشر للمعلومات العملية التى يكتسبها المرء خلال تجاربه اليومية الاتفاقية . ويكون هذا التنظيم فى أبسط صورته بمثابة تصنيف للأشياء التى يستخدمها والتى تدخل فى نطاق ما يعالجه من أمور فى نواحى نشاطه المختلفة ، ويكون مبدأ التصنيف فى العادة التمييز بين النافع والضار ليكون العمل سريعاً منتجاً . وتتمثل مختلف التصنيفات التى ينشأ المرء لتنظيم حياته العملية فى اللغة التى يستخدمها . فكل لغة تتضمن تصنيفاً للموجودات والحوادث ، وكل تصنيف لفئة من الموجودات أو من الحوادث ينطوى على نوع من التفسير والتعليل . فالعلاقات التى تتضمنها الجمل ليست سوى تعبير عن العلاقات التى تبدو المتكلم أنها موجودة فيما يلاحظه من وقائع أو فيما يتصوره من حوادث .

غير أن التصنيفات التى تنطوى عليها التعبيرات اللغوية الجارية ، وبالتالى التفسيرات التى تتضمنها تلك التصنيفات ينقصها الشمول الذى يمتاز به التصنيف العلمى القائم على مبادئ موضوعية ، بعيدة عن المقاييس الذاتية المرتبطة بوجهة النظر النفعية ، كما تنقصها أيضاً الدقة التى يرمى إليها التفسير العلمى المستند إلى قوانين قابلة لأن تصاغ صيغة كمية رياضية . والحاجة إلى التصنيف واضحة خاصة فى علوم الموجودات الحية كعلم النبات وعلم الحيوان ، لأن الكائنات الحية تمتاز بتعدد بنائها إذا قيس ببناء الأجسام الجامدة . ويكاد يكون التصنيف فى علم الكيمياء تاماً شاملاً ، وهذا دليل كاف على تقدم هذا العلم أو على إمكان تقدمه بطريقة مطردة ثابتة . أما التصنيفات البيولوجية فهى ، وإن كانت قد وصلت إلى درجة كبيرة من الدقة والنظام ، لا تزال قابلة للتعديل نظراً للتضارب القائم بين النظريات الكبرى التى تتناول مشكلة طبيعة الحياة وطبيعة

الصلات التي تربط بين مختلف الأجناس والأنواع . ويرجع التفاوت للملاحظ بين تصنيف الأجسام الجامدة وتصنيف الأجسام الحية من حيث الدقة إلى أن خصائص الجوامد أبسط من خصائص الأحياء وأكثر ثباتاً . فالجامد لا ينمو في حين أن الحي ينمو ، الجامد قابل للزيادة والنقصان عن طريق الجمع والطرح ، دون تفيد بقوانين بنائية ، في حين أن الحي لا يزداد إلا عن طريق التمثيل مع الاحتفاظ بشكله وبنائه وفي حدود خاصة تعينها القوانين البنائية وإلا اختل النظام الحي وظهر المرض^(١) . وما يقال عن صعوبة التصنيف في العلوم البيولوجية يقال بالأحرى عن تصنيف الوقائع النفسية . فالحياة النفسية هي أيضاً نظام أي أنها خاضعة لقوانين بنائية توضح تركيب الذهن وبنائه ، وهي قبل كل شيء نشاط ، أي أنها خاضعة لقوانين وظيفية تعين مراحل النمو والتقدم ، مشيرة إلى تآزر العمليات المختلفة التي تقوم الوحدة النفسية الجسمية التي تكون الإنسان ، وإضافة إلى ذلك تُعين معرفة القوانين البنائية والقوانين الوظيفية على كشف المراحل التي يقطعها النشاط السيكولوجي مع تحديد صلة كل مرحلة بما يسبقها وما يتبعها من مراحل .

فالتصنيف في علم النفس خطوة أولى نحو التفسير العلمي الصحيح . ولكن التصنيف مرهون بمدى الحقائق التي وصل إليها العلم كما أن اطراد التقدم العلمي في الكشف عن الحقائق مرهون بدوره بقيمة التصنيف الذي يعين للباحث معالم المجال الذي يبحث فيه . يجب ألا ننظر إلى هذا الأمر نظر المنطقي الذي لا يتناول في تفكيره سوى الجردات ، فيقول إن مثل هذا الموقف ينطوي على دور عقيم لا يمكن الخروج منه . الواقع أن هناك تعاون متبادل بين التصنيف وبين تقدم المعرفة . فازدياد الحقائق يؤدي إلى تحطيم الإطار القديم وبالتالي إلى توسيع الآفاق وإعادة بناء المعلومات القديمة في ضوء الحقائق الجديدة وسيتضح لنا هذا فيما يلي عند عرضنا للمنهج التكاملي في علم النفس تمهيداً لتوضيح التصنيف الجديد المقترح .

Youssef Mourad : Structure fondamentale de l'organisme (١)

vivant.

مجلة كلية الآداب — جامعة فؤاد الأول . المجلد السابع يوليو ١٩٤٤

٢ — التصنيف واللغة

يوجد تضامن وثيق بين المعرفة والعمل ، فالمعرفة تتسع باطراد العمل وتقويمه كما أن العمل يزداد إتقاناً ونفاذاً باتساع المعرفة . ويلخص الإنسان تجاربه المختلفة وما يختبره في نفسه من حالات وما يشاهده في الآخرين من سلوك وتصرفات في اللغة التي يستخدمها . واللغة على اختلاف طرق تعبيرها هي الوسيلة الوحيدة للتفاهم . ولا بد من أن تتخذ اللغة نظاماً يطاق إلى حد كبير نظام العقل نفسه ، ومن المعلوم أن قواعد اللغة أو قواعد التعبير اللغوي تشبه كثيراً قواعد المنطق ، ووجه الفرق الأساسي يرجع إلى أن قواعد اللغة أكثر مرونة من قواعد المنطق ، لأنها أكثر خضوعاً لتأثيرات الحياة والنشاط العملي ، قابلة للتطور أكثر من قواعد المنطق التي تمثل نواحي العقل المجرد عن العوامل الانفعالية ، ومما هو جدير بالملاحظة أن عدد الألفاظ التي تدل على العمليات العقلية العليا التي تمتاز بدرجة كبرى من التجريد والتعميم قليلة بالقياس إلى الألفاظ التي تدل على الحالات الوجدانية المختلفة وعلى الفوارق الدقيقة الموجودة بين حالتين متقاربتين ، وهذه المعاني التي تدل على شتى الحالات الوجدانية والانفعالية مرتبطة عادة بالمعاني التي تدل على أشكال مختلفة من الحركات والأفعال ، كما أنها مرتبطة بالظروف الخارجية التي تحيط بالحالة النفسية وما يصحبها من حركات وأفعال . ويتضح هذا في جلاء إذا تصفحنا بعض كتب اللغة التي تصنف الألفاظ حسب المعاني ، أو كتب الفروق اللغوية ككتاب أبي الهلال العسكري . ولنشر على سبيل المثال إلى ما جاء في الباب الثالث والعشرين من هذا الكتاب في الفرق بين البشر والبشاشة وبين طلاقة الوجه ، ثم بين السرور والفرح والجلد والحبور ، ثم بين الهم والغم ، وبين الحزن والكرب والسكابة والبث ؛ وبين الغم والحسرة والأسف . ويبدو لنا أن اللغة فيما يختص بوصف الحالات النفسية ودقائقها اللطيفة قد ذهبت إلى أبعد ما يمكن أن يذهب إليه التحليل العلمي ، وهذا أمر يسهل تعليله لأن العلم يرمى إلى أحكام كلية عامة فهو مضطر بحكم أساليب بحثه ومنهجه إلى أن يعزل ويفصل حيث لا يوجد في الواقع

عزل ولا فصل ، وأن يضم من جهة أخرى أموراً إلى غيرها مراعيًا فقط أوجه الشبه الجوهرية ، مهملاً الفوارق الدقيقة التي سيكون من شأن الشاعر أو الأديب إبرازها ووصفها . ولهذا يبدو علم النفس العلمى بعيداً كل البعد عن التحليلات الأدبية للحالات النفسية ؛ فلغة العلم جافة غريبة لا يستسيغها الذوق ، لأنها مجردة من الشحنة الوجدانية التي تضيفها الحياة على أساليب الشاعر والأديب ، ولكن لغة العلم تمتاز بالدقة كما أنها تمتاز بالوضوح لمن تعلمها . غير أن معظم مصطلحات علم النفس لا تزال مستمدة من اللغة العامة ، ولكن العالم يحاول تحديد دلالة الألفاظ العادية بحيث يزول اللبس ، وبحيث يصبح اللفظ رمزاً لمعنى معين أو لوظيفة معينة . ولنأخذ مثلاً الألفاظ الثلاثة الآتية : شعر وأحس وأدرك فهي تعتبر في اللغة من المترادفات والدليل على ذلك ما تعرّف به هذه الألفاظ في قواميس اللغة : فنجد أن شعر به معناه علم أو أحسّ به ، وحسّ وأحسّ الشيء وبالشئ علمه وشعر به وأدركه ؛ وأدرك المسألة : علمها ، أدرك الشيء ببصره رآه . وتعرّف المدارك بأنها الحواس والمشاعر بأنها الحواس أيضاً .

أما إذا رجعنا إلى كتب علم النفس فإننا نرى أن كل معنى من هذه المعاني الثلاثة يمثل مسألة من مسائل علم النفس الكبرى . فيعقد فصل في الشعور consciousness ودرجاته ، ثم فصل آخر في الإحساس sensation ، وفصل ثالث في الإدراك perception ، وفي الكتب الحديثة يقصد بالإدراك إدراك العالم الخارجى^(١) .

ولاشك في أن كل إدراك يستلزم إحساس وأن كل إحساس لا بد أن يكون مصحوباً بشعور ، ولهذا السبب جمعت اللغة بين المعاني الثلاثة . ومما لا شك فيه أيضاً أن العلم لا ينكر هذه الصلة القائمة بين هذه الوظائف الثلاث ، غير أنه ينظر إلى كل منها من وجهة خاصة فالشعور شرط ضرورى لكي يكون هناك حالات

(١) راجع قاموس مصطلحات علم النفس في العدد الأول من هذه المجلة « شعور » ص ١٠٤ وفي العدد الثانى « إحساس » و « إدراك » . ص ٢٤٣ — ٢٤٤ .

نفسية — وان لم تكن جميع الوقائع النفسية شعورية يمكن الشخص أن يختبرها مباشرة — ؛ وترمى دراسة الإحساس إلى معرفة الشروط الفسيولوجية والنفسية للتأثر شعورياً بالخصائص الحسية ، أما دراسة الإدراك فإنها مقصورة على دراسة الشروط اللازمة لإدراك موضوعات العالم الخارجى فى المكان .

وهناك حقائق نفسية أعم مما ذكرنا كان من اليسير تمييز بعضها من بعض . فلدينا أولاً التفرقة بين الظاهر والباطن ، ثم التمييز بين الباطن المادى ، والباطن اللامادى ، وتتمثل التفرقة بين الظاهر الملموس والباطن غير الملموس فى التمييز بين الجسد والعقل أو بين الجسم والنفس . فيقال مثلاً ضعف الجسد أو ضعفه ، ولكن يجب أن يقال فقط ضعف الرأى والعقل^(١) . كأن هناك اشتراك بين الجسد والعقل على الرغم من تمايز الواحد عن الآخر ، وميّزت اللغة بين الحركة التى تنطلق بذاتها ولذاتها دون أن تكون موجهة والحركة التى تطلق موجهة وحاملة فى ثناياها دلالة خاصة ، فقد ميّز بين الصياح وهو رفع الصوت بما لا معنى له والنداء وهو رفع الصوت بما له معنى^(٢) .

وميّزت اللغة أيضاً بين الحالة النفسية التى يختبرها الشخص وبين آثارها الحركية كالتغيير الذى يقوى ملامح الوجه فالفرق بين الحزن والكآبة مثلاً أن الكآبة أثر الحزن البادى على الوجه^(٣) . ومثل هذه الأمثلة كثيرة فى لغتنا ولعل اللغة العربية أكثر اللغات تحليلاً لأوجه الحالات النفسية المختلفة وما يصاحبها من تعبيرات .

٣ — التصنيف التقليدى للظواهر النفسية

يرجع التصنيف التقليدى للوظائف النفسية إلى تصنيف قوى النفس أو كما نقول اليوم ملكات النفس (facultés de l'âme) . وكان بربط عادة بين القوى ومركزها فى الجسم . فيقسم أفلاطون النفس إلى ثلاثة أقسام : العقل (nous) ومركزه فى الدماغ

(١) أبو الهلال العسكري ص ٩٤ (٢) نفس المرجع ص ٩٤ (٣) نفس المرجع ص ٢٢١

القوة الغضبية (thumos) ومركزها في الصدر وبالأخص في القلب ، والقوة الشهوانية (épithumia) ومركزها في البطن .

وقد ذكر الغزالي نفس هذا التقسيم ، ولكن بألفاظ أخرى فذكر القوة الربانية (العقل) والقوة السبعية (الغضب) والقوة البهيمية (الشهوة)

غير أن أفلاطون لم يدرس النفس الإنسانية دراسة منظمة مستقلة ، بل ضمن دراسته للكون بأجمعه ، وليست دراسة النفس سوى فرع من علم الطبيعة ، وبين عالم الحسوسات كما يتراءى لنا وعالم المثل الذي يكشفه التذكر توجد صلة هي النفس العالمية التي هي مبدأ كل نظام وكله حركة وكل حياة وكل معرفة . ومن هذه النفس الكونية تنسلخ النفوس الفردية .

فلا نجد في فلسفة أفلاطون علماً للنفس مميّزاً من غيره ، مقصوراً على دراسة الظواهر الداخلية^(١)

أما مؤسس علم النفس فهو أرسطو ، غير أنه اعتبره جزءاً من علم الحياة ويميل العلم الحديث إلى إدخال علم النفس من جديد في دائرة علم الحياة . ونجد عند أرسطو تصنيفاً منظماً للملكات النفس ووظائفها . ويقوم هذا التصنيف على التمييز بين وظائف المعرفة والعلم من جهة وبين وظائف الحركة والعقل من جهة أخرى .

وظائف المعرفة وهي قسمان : حسية وتشمل الإحساس والتذكر والتخيل وتداعي المعاني . وعقلية وتشمل المعنى الكلي والحكم والاستدلال .

وظائف الفعل وهي أيضاً قسمان : حسية وتشمل الميول والانفعالات والأهواء عقلية وهي الإرادة الحرة .

ظل هذا التصنيف متبعاً في القرون الوسطى حتى جاء ديكارت فاستبدل به تقسيماً آخر قائماً على دراسة أحوال النفس أو ظواهرها . فيز بين الأحوال المنفعلة

(١) هناك بعض الدراسات الفرعية كالتمييز بين الجسم والنفس وتغلب الثانية على الأولى ، التمييز بين قوى النفس الثلاث ، نظرية درجات المعرفة ، نظرية اللذة ، التقابل بين المعقول والحسوس .

(modes passifs) وهى العقل وبين الأحوال الفاعلة (modes actifs) وهى الإرادة الحرة .

وينقسم العقل إلى قسمين : ١ — المعانى وهى إما فطرية أو حسية أو خيالية
٢ — الانفعالات وهى بمثابة معان غامضة .

أما الإرادة الحرة فتقسم إلى قسمين أيضاً : ١ — الحكم ٢ — الأفعال .
يلاحظ فى هذا التقسيم الثنائى أن الحالات الوجدانية والانفعالية لا تكون فئة
مستقلة بل اعتبرت جنبا من العقل (entendement) .

ولم يظهر التقسيم الثلاثى الذى يميّز بطريقة واضحة بين العمليات العقلية المؤدية
إلى المعرفة وبين الحالات الوجدانية والانفعالية ، ثم بينهما وبين وظائف الحركة
والفعل إلا فى القرن الثامن عشر تحت تأثير جان جاك روسو (Rousseau) فى الأدب
وكنت (Kant) فى الفلسفة . ولا يزال هذا التقسيم الثلاثى فى بعض الكتب المدرسية
بمثابة الإطار العام لترتيب الموضوعات والفصول . فتمبعا لهذا التقسيم تشمل الحياة
النفسية أولاً الحياة العقلية (vie intellectuelle) ثانياً الحياة الوجدانية^(١)
(vie affective) وثالثاً النشاط الحركى والفعل^(٢) (vie active) ويتمثل هذا التقسيم

(١) يستعمل أحياناً لفظ sensibilité باللغة الفرنسية للإشارة إلى حالات اللذة والألم ،
أما دراسة الاحساسات sensations فانها تدخل فى دائرة الحياة العقلية . راجع مثلاً كتاب
هانكين Hannequin مدخل إلى علم النفس المنشور عام ١٨٩٠ Introduction à la
psychologie فيقسم هانكين الوقائع النفسية إلى ثلاث فئات : الوقائع الوجدانية أو « الحسية »
faits affectifs ou sensibles . الوقائع « المعرفية » أو العقلية faits cognitifs ou intellectuels
الوقائع الإرادية faits volitionnels ou volontaires .

يلاحظ هنا عدم التمييز بين المعنى العام والمعنى العلمى للفظ sensibles حسى ، حساس ، كما
يلاحظ أن الوقائع الإرادية لا تستغرق جميع أنواع الأفعال الحركية .

(٢) يستعمل أحياناً فى تسمية الجانب الثالث من الحياة النفسية وهو جانب الحركة والفعل كلمة
vie conative, conation غير أن لفظ conation الذى يفيد معنى الجهد (conatus)
(effort) أصبى دلالة من لفظ « فعل » action فهو يفيد الفعل الذى يواجه مقاومة ، فى
حين أن الفعل قد يكون تلقائياً أو مصحوباً بجهد Conation semble désigner
l'action en tant qu'elle a à triompher d'une résistance ou réaction
pour se poser elle-même progressivement et in fieri. M. Blondel
in Vocabulaire de Philosophie de A. Lalande. T.I p. 117.

الثلاثى فى العنوان الذى أطلقه العالم الأمريكى سكرىبتشر E.W. Scripture على كتاب فى علم النفس أصدره عام ١٨٩٥ : Thinking, feeling, doing : أى التفكير والوجدان والفعل .

٤ — التصنيف الثلاثى فى كتب علم النفس العربية الحديثة وأوجه الاعتراض عليه

لا شك فى أن لهذا التصنيف الثلاثى مزايا عملية لتبسيط دراسة الحياة النفسية ، غير أنه تبسيط مخل بالواقع ؛ لأن مثل هذا التصنيف جامد يغفل ديناميكية الحياة النفسية ويجردها من أخص مزاياها وهى تواصل مراحلها فى الزمان والترابط الوظيفى الذى يربط بين الوقائع الوجدانية والتصورية والعقلية . فلا توجد حالة نفسية تكون وجدانية أو تصوورية أو فعلية فحسب . فشكل حالة نفسية ، مهما كانت مقصورة على الناحية التصورية ، بطانة وجدانية تأثرية ، فضلاً عن أن كل فكرة تميل إلى أن تتحقق فى الخارج فى صورة حركية .

وقد عدل كثير من مؤلفى كتب علم النفس المدرسية عن ذكر هذا التقسيم وعن اتخاذ إطاراً لتنظيم الوقائع النفسية . وهم يؤثرون المنهج التكوينى الذى يتتبع مراحل النمو منذ الطفولة حتى اكتمال الحياة النفسية ، ثم دراسة تفككها وانحلالها بتأثير المرض والشيخوخة . وأحسن مثال لهذا التصنيف كتاب فلورنس جودينف^(١) .

غير أن كتب علم النفس المدرسية المنشورة باللغة العربية لا تزال متمسكة بهذا التصنيف الثلاثى على الرغم من جموده ومن الاعتراضات التى وجهت إليه^(٢) . ضف إلى ذلك أنه يبدو أن العرب الأول الذى أخذ عنه الآخرون لم يوفق فى نقل

(١) F.L. Goodenough : Developmental Psychology 2d. ed. 1945 D. Appleton-Century Co, New York.

(٢) راجع بهذا الصدد كتب علم النفس الفرنسية للملاير Malapert وري Rey وكوفيلير Cuvillier .

المصطلحات الأجنبية إلى اللغة العربية . فيقال لنا أن الظواهر النفسية تنقسم إلى إدراك ووجدان ونزوع^(١) ويقصد بالإدراك العمليات المؤدية إلى التصور والمعرفة وبالنزوع الظواهر التي تمتاز بالنشاط والحركة . ويمكن الاعتراض على هذا التصنيف بالوجه الآتي :

— من المعلوم أن الشرط الأساسي لكل تصنيف صحيح وافي أن تكون عناصره مميزة بعضها عن بعض تمام التمييز . وهذا التمييز محقق بين الإدراك والوجدان من جهة وبين الإدراك والنزوع من جهة أخرى ولكنه معدوم إلى حد كبير بين الوجدان والنزوع . وربما يرجع هذا اللبس إلى غموض معنى الوجدان ومعنى النزوع . فلو وجدنا معنيين على الأقل ، الأول هو النفس وقواها الباطنة وبهذا المعنى تكون الوجدانيات ما يجده كل أحد في نفسه من حالات شعورية أو ما يدركه مباشرة بالقوى الباطنة أو بالحواس الباطنة (données immédiates de la conscience) أما الثاني فهو الشعور بالألم واللذة والحزن والفرح والشوق الخ أى الشعور بالوجد ومعناه في كتب اللغة الحزن أو الفرح أو الخوف أو الوله أو العشق أو الدلع وبهذا المعنى ينطبق الوجدان على ما يسمى بالفرنسية affectivité وبالأخص على الميول والانفعالات والأهواء . ويتطابق هذا المعنى أيضاً ما اصطاح عليه الصوفية وبالأخص ابن عربي إذ عرف الوجد : ما يصادف القلب من الأحوال المضنية له من شهوده . أما النزوع فعنه في اللغة الميل والرغبة والشوق وأيضاً التشبه والحماكة . فإذا اعتبرنا هذا المعنى اللغوي المباشر يتضح لنا أن النزوع يدخل في دائرة الحالات الوجدانية وكلنا نعلم مدى الصلة الموجودة بين اللذة والألم وبين الميول والنزعات .

وللنزوع معنى فلسفي يمكن استخلاصه مما كتبه ابن سينا في هذا الصدد^(٢) . نلاحظ بادئ ذي بدء أن ابن سينا يجمع بين النزوع والشوق ولا يميز بينهما إذ

(١) هذا التقسيم ينطبق على تحليل مراحل الفعل الفريزي كما وضعها مكدوجل McDougall ولكنه لا ينطبق على جميع الظواهر فكلمة peception إدراك لا تفيد إلا جانباً من عملية المعرفة cognition .

(٢) راجع كتاب النجاة ص ٢٥٩ .

يقول : القوة النزوعية والشوقية هي القوة المحركة على أنها باعثة . والقوة النزوعية والشوقية هي القوة التي إذا ارتسم في التخيل صورة مطلوبة أو مهروب عنها حملت القوة التي نذكرها على التحريك ولها شعبتان ، شعبة تسمى قوة شهوانية وهي قوة تبعث على تحريك يقرب به من الأشياء المتخيلة ضرورية أو نافعة طلباً للذة . وشعبة تسمى قوة غضبية وهي قوة تبعث على تحريك يدفع به الشيء المتخيل ضاراً أو مفسداً طلباً للغلبة .

فيما سبق يعتبر ابن سينا القوة المحركة من حيث هي باعثة ، وهناك اعتبار آخر من حيث هي فاعلة . والقوة المحركة الفاعلة هي قوة تنبعث في الأعصاب والعضلات من شأنها أن تشنج العضلات فتجذب الأوتار والرباطات إلى جهة المبدأ أو ترخيها وتمدها طولاً فتصير الأوتار والرباطات إلى خلاف جهة المبدأ .

ويقول أيضاً في عيون الحكمة (ص ٢٩) : القوة المتحركة هي مبدأ انتقال الأعضاء بتوسط العصب والعضل والإرادة . والمقصود من القوة المحركة في هذا النص الأخير القوة المحركة على أنها فاعلة .

يتضح لنا ، في ضوء النصوص السابقة ، أن النزوع أقرب إلى الوجدان منه إلى الحركة من حيث هي فعل وتنفيذ ، وإذا أردنا أن نقسم الظواهر النفسية إلى وجوه ثلاثة ، بحيث يكون كل وجه جامع ومانع في آن واحد كما يقول المنطقة ، فلتكن القسمة كالآتي : علم (لا إدراك فقط) ، وجدان بما فيه النزوع والشوق وأخيراً نشاط وفعل . ولكن على الرغم من ذلك فإنه لا يزال ناقصاً بعيداً عن الواقع ؛ فالعمليات العقلية المؤدية إلى المعرفة والعلم هي نشاط كما أن لا بد من بواعث سواء للتفكير أو العمل ، كما أنه أيضاً لا يمكن أن توجد حالة وجدانية دون أن تكون مصاحبة بحكم عليها كأن نحكم ولو حكماً ضمنياً أن هذا الألم شديد وذاك ضعيف الخ .. وكذلك يمكن القول أن النزوع — أي الباعث على حد تعبير ابن سينا — لا يكفي لاستكمال الحركة ، خاصة إذا راعينا الحياة النفسية في الإنسان وما يجب أن نفهم عليه الإرادة الإنسانية التي لا تتم إلا بتوسط الفكر والعقل . فالنزوع لا يعبر إلا

عن الإرادة الحيوانية ، إرادة جذب النافع طلباً للذة ودفع الضار والمؤذى طلباً للغلبة^(١) .

وفي إمكاننا أن نعود إلى نصوص ابن سينا لنلتمس تقسيماً أوفى وأدق من التقسيم الشائع . فابن سينا يميز بين النفس الحيوانية المشتركة بين الحيوان والإنسان وبين النفس الناطقة الخاصة بالإنسان . فيقول إن للنفس الحيوانية قوتين مدركة ومحركة وللنفس الناطقة أيضاً قوتين عالمة وعاملة . والمدركة في الحيوان تناسبها العالمة في الإنسان والمحركة في الحيوان تناسبها العاملة في الإنسان فيكون لدينا قسمان رئيسيان : إدراك وعلم من جهة وحركة وعمل من جهة أخرى ، وينطوي القسم الثاني على الناحية الوجدانية إذ أن القوة المحركة من حيث هي باعثة تؤدي تبعاً لابن سينا إلى النزوع والشوق والشهوة والغضب .

٥ — المنهج التكاملی

يرجع نقص التصنيف التقليدي إلى نقص المنهج الذي اتبع في الكشف عن الحالات النفسية وتحليل مظاهرها . وهذا المنهج هو الاستبطان الذي لا يدرك إلا ما يبدو للشعور في لحظة ما دون الوصول إلى ما وراء الحالات الشعورية من عوامل وشروط ترجع إلى تركيب الطبيعة الإنسانية وإلى خبرات الماضي التي تمتد آثارها إلى الحاضر .

فنتائج الاستبطان محدودة للغاية ، صناعية وتجريدية ، تغلب عليها الصبغة الاستاتيكية الجامدة . فقد يذهب الاستبطان إلى تجاوز الحدود التي تحتمها طبيعة الموضوع لعملية التحليل لكي لا تشوه هذا الموضوع برده إلى عناصر مجردة افتراضية وإلى حالات بسيطة مفككة . فلا بد إذن من البحث عن منهج يلائم طبيعة الحياة

(١) هذا الاتجاه واضح في بعض الكتب العربية الحديثة المتداولة ، فلا يخرج القارئ لفصل الإرادة إلا بفكرة عن الإرادة في مظهرها الحيواني الخسب ، على الرغم مما يذكر — بعد تعريف الإرادة بمحض الشهوة أو الميل — من العمليات الفكرية المصاحبة للفعل الإرادي . فالكلام عن الإرادة مجرد ذكر أجزاء لا يربط بينها مبدأ واحد واضح .

النفسية ويراعى تعقدها وتواصل مراحلها واتجاه تطورها ، مع الإشارة دائماً إلى هذه الحركة الحية التى تربط بين مختلف المراحل التى تؤدى بالفردية البيولوجية إلى الشخصية الفاعلة المتكاملة . وهذا المنهج هو المنهج التكاملى الذى يتخذ من الشخصية المحور المركزى لجميع الدراسات السيكولوجية .

وليس معنى التكامل بالمعنى الجديد فى علوم الأحياء ، فإنه يمكن تتبع فكرة التكامل منذ أرسطو حتى عصرنا هذا فى مصنفات الفلاسفة والعلماء الذين نظروا إلى الإنسان كوحدة نفسية جسمية لا تتجزأ . وقد ساهم علماء الفسيولوجيا وخاصة علماء وتكوين الأجنة فى توضيح عملية التكامل فى الكائن الحى ونخص منهم بالذكر شرنجتون وثون مونا كوف ودريتش وكوجيل وسيان وجولدشتين^(١)

كما أنا نجد الروح التكاملية توجه بعض المدارس السيكولوجية التى تركز دراساتنا حول الشخصية ، رافضة الأخذ بالتفسير الميكانيكى كما تصنع مثلاً المدرسة السلوكية البحتة ، ومراعية ما يمتاز به الحياة النفسية من نشاط ذاتى وغائية . ونلمس هذه الروح التكاملية فى بحوث أدولف ماير A. Meyer وتلامذته وفى المدرسة السيكلوسوماتية فى الطب (psychosomatic medicine)

وقد وصلنا إلى استخلاص معالم المنهج التكاملى فى أثناء دراستنا المقارنة للسلوك الحيوانى وسلوك الطفل فى السنتين الأولى والثانية من عمره وقد نشرنا هذا البحث عام ١٩٣٩ بعنوان بزوغ الذكاء^(٢) ثم عملنا على توضيح هذا المنهج فى أثناء تدريس

C. S. Sherrington : The integrative action of the (١) nervous system. 1906. 6th. ed. 1920.

C. v. Monakow & R. Mourgue : Introduction biologique à l'étude de la neurologie et de la psychopathologie. 1928.

Hans Driesch : The science and philosophy of the organism. 1908.

G. E. Coghill : Anatomy and the problem of behavior 1929.

Hans Spemann : Embryonic development and induction 1938.

K. Goldstein : Der Aufbau des Organismus 1934.

Y. Mourad : L'éveil de l'intelligence. Etude de psychologie génétique et comparée. Pp. XV—406 Alcan, Paris 1934. (٢)

علم النفس بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول منذ عام ١٩٤٠ . وقد وصلنا نهائياً إلى التصنيف الذى سنعرضه بإيجاز فى الفقرة السادسة فى خلال عام ١٩٤٢ ولم تتح لنا فرصة نشره قبل اليوم^(١)

وقبل ذكر التصنيف التكاملى للوظائف والوقائع النفسية ، يجدر بنا أن نعرض بشيء من التفصيل لأهم قضايا المنهج التكاملى نفسه ، مبينين كيف أن طبيعة الحياة النفسية تتطلب ، لسكى تفهم فهماً شاملاً ، مثل هذا المنهج دون سواه .



تختلف العلوم باختلاف موضوعاتها ، فمنها البسيطة ومنها المعقدة تبعاً لطبيعة الموضوع ، وبما أن كل علم هو معرفة منظمة لموضوع معين بواسطة مبادئ وقوانين تفسيرية ، فلا بد فى كل علم خاص من انتهاج منهج خاص يلائم موضوع العلم ويؤدى تطبيقه إلى كشف أكبر عدد ممكن من الحقائق وتنظيم هذه الحقائق فى صورة قوانين عامة شاملة . وكلما ازدادت القوانين شمولاً وتفسيراً لعدد كبير من الحقائق قل عددها وازداد العلم تنظيماً ووضوحاً . فالعلوم الرياضية والفلكية مثلاً أقل تعقداً من العلوم الطبيعية التجريبية ، فالمنهج فى العلوم الرياضية قياسى عقلى لا يعتمد على التجربة إلا عرضاً ، فى حين أن التجربة والاستقراء يقومان بالدور الأول فى العلوم الطبيعية . غير أن الجرب لا بد له من اصطناع القياس والاستنتاج الرياضى بجانب ما يقوم به من عمليات التجريب .

وإذا انتقلنا إلى علم الأحياء شعرنا بضرورة توسيع المنهج التجريبي لمراعاة الخصائص الجديدة التى تمتاز بها الكائنات الحية كظاهرة الوظيفة البيولوجية وما تنصف به العمليات الفسيولوجية من اتجاه معين وغائية^(٢) وبالانتقال إلى علم النفس

(١) اطلعنا بعد الانتهاء من وضع منهجنا ووضع كتاب علم النفس القائم عليه — وسعيد للطبع قريباً — على كتاب مارستون Marston « علم النفس التكاملى » Integrative psychology المنشور عام ١٩٣١ . ولا يختلف هذا الكتاب عن بقية الكتب فى طريقة تصنيف موضوعاته إذ لا ينتهج مبدأ واضحاً للتصنيف والتعليل .

(٢) راجع كتاب « مدخل إلى دراسة الطب التجريبي » تأليف كلود برنار وترجمه يوسف مراد وحمد الله سلطان . المطبعة الأميرية ١٩٤٤ .

وعلم الاجتماع نشاهد ازدياد تعقد موضوعات هذين العلمين لتدخل العناصر النفسية والعقلية كما هي ممثلة في الإنسان ، وتفاعلها في الجماعات . وفي مثل هذه العلوم الإنسانية يصبح المنهج التجريبي كما هو مطبق في العلوم الطبيعية ناقصاً والقوانين الطبيعية عاجزة عن تفسير الظواهر الإنسانية وبيان ما يمتاز به من صفات جديدة . فلكما أنه من الخطأ تشبيه الجسم الحى بالآلة الخاضعة لقوانين ميكانيكية بحتة ، يكون كذلك من الخطأ تشبيه النفس الإنسانية أو الجماعة بالجسم الحى دون مراعاة ما يمتاز به من فوارق جوهرية .

ولكن كما أن العلوم المعقدة تستند إلى ما هو أبسط منها ، فلا شك أن هناك أوجه شبه بين نمو الكائن الحى ونمو النفس الإنسانية أو الجماعة . فيجب الاستفادة بما وصلت إليه علوم الأحياء من حقائق وقوانين للاستعانة بها على سبيل المائلة لكشف القوانين الخاصة بالوقائع النفسية والاجتماعية . وهناك خاصية مشتركة بين الكائن الحى والنفس الإنسانية والجماعات وهي الناحية التكوينية التطورية ، أى أنه لا بد من اعتبار المراحل التى يمر بها النمو والترقى من نقطة البدء حتى الاكتمال ثم الزوال . أو بعبارة أخرى يؤدى الزمن دوراً هاماً في تفسيرنا لظواهر الكائنات الحية والظواهر الإنسانية . فالحاضر لا يفهم تماماً إلا في ضوء الماضى كما أن معرفة الحاضر تعيننا على التنبؤ بالمستقبل إلى حد كبير .

وإذا اتخذنا الحياة بأوسع معانيها بحيث تشمل الحياة النفسية والحياة الاجتماعية قلنا إن الحياة حركة ولكنها موجهة ترمى إلى غاية معينة ، تقوم كل خطوة جديدة على الخطوات السابقة ولكنها مبدئية فى كل خطوة جديدة مظاهر وخصائص جديدة على الرغم من قيامها على الماضى .

وبما أن ميزة الحياة هى الحركة والتطور فلا بد أن يكون المنهج ديناميكياً تطورياً لى يراعى الصلة القائمة بين الماضى والحاضر والمستقبل . ولكن ما هى طبيعة هذه الحركة ؟ هل هى حركة مطردة تسير دائماً إلى الأمام وفى خط مستقيم كالحركة الميكانيكية ؟ أم هى حركة دائرية تعود بالمتحرك إلى نقطة البدء ؟ حركة

الحياة ليست هذه ولا تلك ، فالأولى عمياء في حين أن حركة الحياة موجهة تقف عند غاية ، والثانية تفيد في نهاية الأمر الجلود والثبات في حين أن الحياة تجديد وتطور .

ولا يمكن كشف طبيعة هذه الحركة ومن ثم توضيح المنهج الملائم لدراستها وفهمها بطريقة شاملة إلا بدراسة نظام من الأنظمة الحية كالشخصية أو تكوين مجتمع مثلاً . ولكن هناك اعتراض لا بد من الإشارة إليه والرد عليه قبل مواصلة الحديث في طبيعة الحركة المميّز للحياة . كيف يمكن معرفة طبيعة هذه الحركة قبل تحديد المنهج الملائم لدراستها وكيف يمكن تحديد المنهج الملائم بدون معرفه سابقة لطبيعة الموضوع ؟ . فهنا دور بدون شك لا يمكن الخروج منه . والواقع أن الدور لا يبدو إلا للنظرة السطحية وقليل من التفكير في طبيعة البحث العلمى كفيل بإزالته .

لنأخذ مثلاً دراسة الشخصية . فإن علم النفس لم يصل إلى ما يعرفه اليوم عن نشوئها وترقيها كما يبنى الحائط بوضع صف من الحجر فوق الآخر ؛ لم يصل إلى معرفة الشخصية بطريقة تدريجية ، بل بطريقة تقرينية . ففي العهد الأول من دراسة الشخصية كان علماء النفس يصطنعون منهج العلوم الطبيعية ، فكانوا يحلون الشخصية إلى عناصرها ، ثم يركبونها من جديد بضمّ العناصر بعضها إلى بعض كما يصنع عامل الفسيفساء . فكان ينظر إلى الشخصية كأنها مجموعة من السمات دون كشف تنظيم هذه السمات والإشارة إلى عوامل التنظيم التي هي غير هذه السمات المنظمة .

ثم عند ما أريد تطبيق هذه النظرة في حالات فردية واقعية اتضح نقصها فاضطر العلماء إلى إعادة النظر في صلاحية المنهج المتبع ومحاولة تعديله في ضوء البحوث المختلفة التي كثيرا ما كانت متناقضة . فالمنهج في الواقع هو كالألة التي تكون في بادئ الأمر غليظة غير دقيقة ، ثم يجد الصانع الذي يستعملها فرصاً لتحسينها وصقلها كلما واصل عمله . فالآلة تؤدي إلى نتيجة ما ، ثم تساعد هذه النتيجة على تحسين الآلة وهكذا حتى الوصول إلى الكمال . فإذا كان لدينا مثلاً ثلاث نظريات

رئيسية في الشخصية تعاقبت في بحر نصف قرن ، فإن كل نظرية ترمى إلى تفسير مظاهر الشخصية بأكملها ، ولكن النظرية الثانية التي تحل محل الأولى ليست مجرد إضافة إلى النظرية الأولى والثالثة إلى الثانية وهكذا . بل كل نظرية جديدة تكون تعديلا للنظرية السابقة . هذا التعديل هو بمثابة إعادة نظام النظرية الأولى في ضوء البحوث الجديدة مع الاحتفاظ بالحقائق الجزئية التي تتفق معها ونبذ ما هو مخالف . وهكذا تقرب كل نظرية جديدة من الحقيقة دون الادعاء أنها أملت بها تماماً .

فمن الخطأ اليوم أن نتصور الشخصية كمجموعة عناصر أضيفت بعضها إلى بعض كما أنها ليست تأليفاً بين عناصر ، بل هي بمثابة نظام كلي يبدأ كنظام ، غير أن التمايز الذي يحدث داخل هذا النظام الكلي يتجه في نموه من الغموض إلى الوضوح ، من اللاتعيين إلى التعيين . فالشكل الأصلي يزداد تفصيلاً ، ولكن التفاصيل والأجزاء التي تزداد تمايزاً بعضها عن بعض تحدث وتنظم طبقاً لقانون الشكل الأصلي . والاتجاهات التي تشاهد داخل هذا النظام تكون مزدوجة ومتقابلة وفي نفس الوقت متعاقبة : فغموض ثم وضوح ، ثم غموض من جديد يعقبه وضوح أكبر ، أو اتجاه نحو العالم النفسي الداخلي ثم اتجاه نحو العالم الواقعي الخارجي ، ثم عودة إلى الداخل قبل مواجهة الخارج من جديد بأسلوب يزيد الأول ثراء وقوة وانسجاماً ، أو حالة خضوع تعقبها حالة عصيان ممهدة لحالة خضوع جديدة يكون فيها الشخص أكثر اقتناعاً وأعمق تبصراً .

والتيارات المختلفة التي يكشفها التحليل داخل نظام الشخصية في أثناء نموها وترقيتها تظهر في أوقات معينة فتتنظم بطرق شتى : تآزر من جهة ومقاومة من جهة أخرى ، ثم خضوع البعض للبعض الآخر ، أو كما في حالات الانحراف والاختلال والأمراض النفسية انفصال أو توقف أو زوال أو تضخم أو نقص في بعض التيارات دون غيرها . ومن بين هذه التيارات ما يرجع إلى العوامل البيولوجية كالجهاز العصبي وإفرازات الغدد الصماء ، أو إلى العوامل النفسية كالانفعالات والعواطف والعمليات الإدراكية والعقلية المختلفة ، أو إلى العوامل الاجتماعية من بيئة ،

وما يصدر عنها من إحياءات وآثار ، فتتفاعل هذه العوامل بعضها مع بعض بدرجات متفاوتة تبعاً لطبيعة كل عامل وتغير ظروفه ، وهذه العمليات المختلفة من تآزر وخضوع واندماج مقاومة تؤدي عندما تسير سيرها السوى إلى حالة انسجام واتزان تعرف بحالة التكامل .

فإذا أردنا أن نصف هذه الحركة التي تتقدم وترتقى خلال فترات من التراجع والمكون مع الازدياد في التعقد والثراء وسمناها بالحركة الدائرية اللولبية التي تفيد في نفس الآن عمليتي التقدم والتراجع النسبي الممهد لتقدم جديد . ونلمس هنا حقيقة هامة فيما يختص بجوهر الوجود بوجه عام . فالوجود المتزامن بزمان هو في جوهره صراع وتوفيق في آن واحد ، وهذه الفكرة متمثلة بدرجات متفاوتة من الوضوح في الأساطير والأديان والفلسفات المختلفة . فيمكن القول إن كل وجود لا يتم إلا بفضل عامل من العوامل وعلى الرغم منه ، فحياة بفضل الموت وعلى الرغم منه ، جديد بفضل القديم وعلى الرغم منه ، توحيد بفضل الكثرة وعلى الرغم منها ، ذاتية بفضل التغير وعلى الرغم منه ، سعادة بفضل الشقاء وعلى الرغم منه ، حرية بفضل العبودية وعلى الرغم منها . هذا هو لب الوجود وسر التقدم الحقيقي . تتبع فالمنهج التكاملي هو الذي يسترشد في بحوثه بهذه الحركة الدائرية اللولبية ، فيحاول جميع التيارات التي تساهم في تكوين ظاهرة من الظواهر الإنسانية سواء كانت نفسية أو تاريخية أو اجتماعية أو خلقية أو فلسفية ، مع كشف تنظيم هذه التيارات وصلاتها بعضها ببعض . ففي دراسته للشخصية مثلاً يرمى إلى الربط بين الماضي والحاضر مع مراعاة مصير الشخصية المحتمل إذ أن الشخصية تخضع في نموها وترقيها لقوانين ديناميكية توجيهية .

ويرمى المنهج التكامل إلى إعادة تنظيم المنهجين الرئيسيين المستخدمين اليوم في علم النفس لتفسير سلوك الإنسان ، ولكن على أساس أوسع وفي ضوء هذه الوظيفة الهامة التي أشرنا إليها باسم الوظيفة الدائرية اللولبية والتي هي بمثابة العمود الفقري

للمنهج ؛ وهذان المنهجان يعتمدان الأول على التفسير التاريخى أو التكويني والثانى على ما يمكن تسميته بالتفسير الشبكي .

فالتفسير التاريخى أو التكويني يحاول الربط بين الحاضر والماضى ، أى بين السلوك كما هو مشاهد الآن وبين الدوافع والميول وكل ما اكتسبه الفرد في تجاربه السابقة ، سواء كانت هذه التجارب من رغبات وذكريات مشعوراً بها أو لا ، ماثلة في الشعور أو منسية .

أما التفسير الشبكي فإنه يتناول الحالة الراهنة أو المظهر السلوكى الراهن كتجربة نفسية من حيث هى تجربة شعورية يصفها الشخص ، ذا كراً بقدر الإمكان كل الخصائص والصفات التى تجعل من هذه التجربة أمراً فردياً وفريداً فى نفس الوقت ، هو صورة وافية لحياة الشخص كما يعيشها ويعانها فى اللحظة التى يتأمل فيها . لا شك فى أن الاعتماد على تفسير دون الآخر عاجز عن أن يجعلنا ندرك حقيقة الحالة التى ندرسها . فالتفسير التاريخى يحاول التعليل بربط المعلولات بعلاها ولكنه تفسير ناقص لأن العلم فى الواقع عاجز عن أن يقدم تعليلاً وافياً لعدم إمكان حصر جميع الحلقات التى تكون سلسلة العلل والمعلولات .

ثم إذا اقتصرنا على هذا التفسير التاريخى ألفينا أنفسنا أمام تفسير يجرّد الحياة النفسية من كل حرية ويخرج من دائرة علم النفس عاملاً أساسياً من عوامل تكوين الخلق وهو الإرادة . فهو تفسير يفرض حتمية تسلسل العلل والمعلولات كما يظهره لنا التحليل العلمى .

والتفسير الشبكي بدوره ناقص لأن مضمون الشعور كما هو الآن وكما أصفه تبعاً لشعورى به هو فى الواقع جزء من حياى النفسية وإن كان لهذا الجزء أهمية كبرى لأنه يعبر عن الشخصية كما هى فى صميمها من حيث اتجاهاتها وأساليبها . غير أن ميزة التفسير الشبكي هى أنه يعتبر من بين العوامل التى يكشفها تأمل الشخص لنفسه أو شعور الشخص بنفسه عامل الحرية والإرادة ، سواء فى صورة سلبية أو إيجابية كأن يشعر الشخص بأنه مسيرٌ ومجبور أو حر مسيرٌ لنفسه إلى حد ما ،

سواء كان هذا الشعور بالحرية وبالإرادة الذاتية مجرد وهم كما يزعم مذهب حتمية الظواهر النفسية أو حقيقة . فهذا الشعور بالحرية هو أمر واقعي من حيث هو مشعور به وهو عامل من أهم العوامل التي تساهم في تكوين الخلق وتوجيه الشخصية . فالتفسيران التاريخي والشبكي متماثلان بعضهما للآخر ولكن المشكلة في التوفيق بينهما . هل يكون التوفيق عن طريق إضافة نتائج التفسير الأول إلى الثاني دون الربط بينهما ربطاً حياً ، أى دون مزجها أو بعبارة أصح تنظيمهما داخل تفسير أوسع وأعمق وأشمل ؟

يتحقق التوفيق بين المنهجين بفضل المنهج التكاملى الذى يضم الإثنين مع كونه أكثر من الإثنين مجتمعين . فإنهما يتكاملان داخل المنهج التكاملى ولكن ما هو عامل التكامل ؟

لنرد على هذا السؤال الهام نجمل ما قلناه عن التفسيرين التاريخي والشبكي : التاريخي يربط بين الحاضر والماضى ، والشبكي يتناول الحاضر ؛ ولكننا نعلم أن لكل كائن حى نموذجاً يتطور لكى ينتهى عند حالة معينة هى حالة البلوغ والاكتمال الجسمى فى الكائنات الحية عامة ، كأن ما سيمير عليه الكائن الحى يعين المراحل التى سيمر بها لكى يصل إلى غايته البيولوجية . وكذلك للشخصية مصير أو نموذج قابل للتحقيق فى المستقبل أو غاية ترمى إليها ، غير أن هذه الغاية أصعب تحديداً من الغاية البيولوجية التى سيحققها كل كائن حى فى دائرة فروعها . هناك إذن فكرة موجّهة كما يقول كلود برنار يعيننا كشفها على فهم طبيعة الحياة ، وبالأولى طبيعة النفس التى هى أقرب إلى عالم الفكر منه إلى الحياة فى أعم مظاهرها من نمو وتكاثر . وتكون إذن معرفة المصير كما يوصلنا إليها العلم والفلسفة مما يعيننا على فهم طبيعة كل فرد من الأفراد وفهم مراحل نموه وترقيه المتعاقبة المتجهة نحو غاية أو هدف . فالمنهج التكاملى هو الذى يراعى فى محاولة تفسيره السلوك الإنسانى ماضى الشخص وحاضره وكذلك ما يحتمل أن يؤول إليه فى المستقبل . وهذا الاحتمال كبير جداً إذ أنه مستند إلى دراسة سابقة للطبيعة الإنسانية وكلما تقدمت هذه الدراسة زاد هذا الاحتمال قرباً من اليقين .

وفي دراسته للمراحل المتعاقبة ، لا يعتبر المنهج التكاملي كل مرحلة أساساً للمرحلة التالية فحسب ، بل رمزاً لها .

ومن الوظائف الأساسية التي يعتبرها المنهج التكاملي أكثر عمومية من غيرها وأشمل تفسيراً الوظيفة الدائرية اللولبية التي سبق ذكرها . والمقصود من هذه التسمية أن الرق لا يسير طبقاً لخط مستقيم مطرد . كما أن النمو ليس تقدماً إلى الأمام ثم نكوص إلى الوراء بحيث يعود الأمر إلى نقطة البدء . بل النمو أكثر تعقداً من التصوير البسيط الأول الذي يمثله بخط مستقيم كما أنه شيء آخر غير وجود عابر بين عديمين : العدم السابق للوجود والعدم اللاحق له . الواقع أن في كل نمو نكوص إلى حد ما ، ولكنه ليس بالنكوص الكامل الذي يعود إلى نقطة البدء ، هو بتعبير آخر رجوع قليل إلى الوراء استعداداً للوثبة القادمة . النمو هو إضافة الجديد إلى القديم ، لا إضافة عدديه أو حسابيه بل إعادة تنظيم القديم تحت تأثير الجديد وبتمثيل هذا الجديد وطبعه بطابع النظام الكلي الذي يسعى لتحقيق غايته ونموذجه السامي ، فرجوع إلى الوراء قليلاً ثم وثبة إلى الأمام تحمل الكائن النامي إلى أبعد مما وصل إليه في المرحلة السابقة ، وهكذا تتعاقب الطفرات حتى تحقيق التكامل النموذجي . فالنمو حركة دائرية ولكنها لولبية إذ أن النمو تقدماً وتجديداً وفيه ترقٍ وصعود . وفي ضوء هذه الحركة الدائرية اللولبية ندرك تماماً معنى الانسجام الذي عبرنا عنه بأنه في نفس الوقت تآزر وائتار أي تعاون وخضوع .

ويمكن القول بأن النمو ، بحكم كونه موجّهاً ، لا يتم إلا عن طريق التكوين المزدوج المتبادل ، أي أن المرحلة الجديدة تعين بشكل ما المرحلة القديمة ، كما أن المرحلة القديمة تعين بدورها ما يلحقها من مراحل .

ومما هو جدير بالملاحظة هو عمومية هذه الوظيفة الدائرية اللولبية وشمول تفسيرها إذ توضح لنا دراساتنا في ميدان علم الأحياء وعلم النفس وعلم الاجتماع وفي ضوءها يمكننا تحديد ما نسميه بالمدنية أو الحضارة .

وهناك ملحوظة أخرى لا بد من إثباتها هنا وهي أن الحركة الدائرية اللولبية التي

نشاهدها في نمو الأفراد والجماعات سواء كان هذا النمو مادياً اقتصادياً أم ثقافياً روحياً لا تكون مطردة لاتقف عند حد . وهذا واضح فيما يختص بالنمو البيولوجي ولكن هذه القضية الهامة في نظرنا تنطبق أيضاً على النمو السيكولوجي والترقى الاجتماعى والثقافى . فهناك قانون آخر مغرور في صلب الطبيعة الحية هو قانون الاعتدال أو قانون التوازن بين طرفين . وقد عبرنا عن هذا القانون ضمناً عند ما تحدثنا عن الصورة أو النموذج أو الغاية . فكل تجاوز لحدود الصورة أو الغاية ينقلب فوراً إلى نقص ، بل إلى اضطراب واختلال ، إلى مرض وموت . ولا يوجد في الطبيعة سوى مظهر واحد لا يخضع لقانون النمو كما وصفنا وهو الحركة الميكانيكية العمياء التى تسير دائماً مماثلة لنفسها طالما يظل الحرك مماثلاً لنفسه من حيث قوة الدفع . وأقوى شاهد على ما نقول ، إذا نظرنا إلى حضارتنا الحاضرة ، هو وجود التعاسة والخوف والمرض والدمار جنباً إلى جنب مع تغلب النزعة الميكانيكية التى لا تعرف الهوادة ولا الراحة .

وفي دراسة هذا التطور الموجّه الذى يسير نحو تحقيق الصورة المثلى لسكل كائن حى أو لسكل نظام شبيه بالكائن الحى ، فرداً كان أو جماعة ، لابد من مراعاة جميع المقومات ، كل فى مرتبته الخاصة وبالقياس إلى سائر المقومات التى تتجه نحو التكامل والاتزان .

٦ - التصنيف التكاملى للوقائع النفسية

يتبين لنا مما سبق أن التصنيف الحقيقى للوقائع النفسية لابد له من أن يسترشد بخصائص الحياة النفسية وأن يتبع فى سيره المراحل التى تجتازها هذه الحياة فى سعيها نحو تحقيق الغاية التى تنطوى عليها كل خطوة من خطواتها ، بحيث يصبح التصنيف صورة صادقة للمصنّف ، يلخص فى حركته الصاعدة سير الحياة النفسية فى أثناء نموها وترقيها فى كنف الزمن الحى الذى يربط بين اللحظات المتعاقبة داخل نظام كلّى موحد .

ويكون غرض علم النفس التكاملى أن يفسر لنا كيف يتم الترقى الذى يحوّل الفردية البيولوجية إلى شخصية متكاملة وأن يعطينا صورة صادقة لمراحل التكوين والنمو مع بيان شتى العوامل والشروط البيولوجية والسيكولوجية والاجتماعية.

يبدو لنا أن الطفل المولود حديثاً لا يختلف عن سائر الحيوانات ، وأنه لن يتجه نحو النموذج الإنسانى إلا بفضل تأثير المجتمع . الواقع أنه ليس فى مقدور المجتمع أن يخلق شيئاً ، فلا بد من أن تكون جميع الإمكانيات الإنسانية موجودة فى هذا الكائن الذى يبدو لنا شبيهه بسائر الحيوانات . ولكن يجب القول أيضاً أنه ليس فى مقدور هذه الإمكانيات أن تظهر وتنمو بدون تأثير المجتمع . فإذا كان المجتمع لا يخلق شيئاً ، فلا شئ ينمو ويكتمل بدونه . ولهذا السبب يجب أن يكون علم النفس علماً نفسياً اجتماعياً فى آن واحد . كما أنه لا بد من أن يكون أيضاً بيولوجياً إذ لا يدرس علم النفس نفساً مجردة بل نفساً لها جسم أى الإنسان .

ويترب على ذلك أن التصنيف الحقيقى للوقائع النفسية — وهو تصنيف تفسيرى للحياة النفسية لأنه يتتبع مراحل التكوين والنشوء — سيشير بالضرورة إلى العوامل البيولوجية والاجتماعية التى تشترك فى توليد المراحل بعضها من بعض وإظهار الوظائف الجديدة وتنميتها وتفاعلها .

ف لدينا من جهة العوامل النفسية والاجتماعية ، ومن جهة أخرى العوامل البيولوجية والنفسية . والقطبان الأولان يعينان من جهة طرفى الحركة التى ستظهر خلالها الوظائف النفسية الأساسية فى أثناء تحوّل الفردية البيولوجية بما تحمّل فى طبيعتها من حوافز وميول إلى شخصية اجتماعية موحدة متكاملة شاعرة بذاتها وبقدرتها على العمل الحرّ .

ويعين القطبان الثانى الطرفين اللذين ستظهر حول كل منهما الأبنية (structures) أو الأشكال التى ستتوضح خلال عمل الوظائف فى أثناء عملية بناء الحياة النفسية وهذان الطرفان هما المجال الحركى من جهة والمجال ذهنى من جهة أخرى .

ولكل زوج من هذين الزوجين (فردية بيولوجية — شخصية اجتماعية أو

ذات شاعرة حرة) و (مجال حركى - مجال ذهنى) قانونان توجيهيان ، يعين كل منهما الاتجاه المؤدى إلى رقى الحياة النفسية وتكامل جميع مقوماتها .

القانون الأول : يتجه الترقى فى مجال الخوافز والميول من اللاشعور إلى الشعور .

القانون الثانى : يتجه الترقى فى مجال الشخصية من الأفعال الآلية إلى الأفعال الإرادية .

القانون الثالث : يتجه الترقى فى مجال النشاط الحركى من استخدام الأشياء إلى استخدام رموزها .

القانون الرابع : يتجه الترقى فى مجال النشاط ذهنى من الإحساس إلى التصور ذهنى (١)



يمكن الكشف عن أهم المراحل التى تقطعها الحياة النفسية فى أثناء نموها بدراسة سلوك الطفل الحركى النفسى منذ الولادة حتى اكتساب اللغة وظهور القدرة على التصور ذهنى والتفكير .

يكون السلوك فى أول مظهره آلياً ، أى أنه يتم بتأثير المنبه الخارجى مباشرة ، بشرط توافر الشروط الداخلية التى تهيب جسم الطفل للقيام بالاستجابة التى يثيرها المؤثر الخارجى . وهو سلوك آلى أى غير مسبوق بروية وتفكير ، كما أنه سلوك فطرى أى غير مكتسب ، ولكنه سلوك مكثف ، أى أنه يؤدى إلى إرضاء الحافز الداخلى كالجوع مثلاً . ونظراً لأنه مكيف وملائم لا يصح أن نعتبره ميكانيكياً ، إذ أن الميكانيكية لا تتضمن بذاتها السعى نحو تحقيق غاية ما .

والتكيف الذى يبديه الفعل الآلى صورة من صور الذكاء ولهذا السبب يعتبر سلوكاً نفسياً ضمناً . ولا تتضح صفة « النفسية » فى السلوك الآلى إلا عند ما تكون

(١) لا يتسع المقام لتوضيح هذه القوانين ، ويمكن الرجوع إلى كتابنا « شفاء النفس » ص ١٢٥ - ١٢٨ دار المعارف للطباعة والنشر - ١٩٤٣ - آثرنا فى نص القانون الثانى أن نستبدل بالأفعال المنعكسة . كما جاء ذكرها فى كتاب شفاء النفس ، الأفعال الآلية . والمقصود بالفعل الآلى ما لا يكون مسبوقاً بروية وتفكير .

الاستجابة العنبره ، لا من حيث هو مؤثر فيزيقي فحسب ، بل من حيث هو دلالة أو إشارة أو رمز وستظهر القدرة على إدراك الدلالة بفضل ظاهرة جديدة هي الانفعال .

ولا نقصد بالانفعال مجرد التأثير الوجداني بالذلة أو الألم ، بل تغير فجائي بعترى السلوك الهادىء المنظم المتواصل . والانفعال ينتج دائماً عن عجز السلوك الآلى عن إرضاء الحافز ، أو بعبارة أعم عن التفاوت بين قدرة الآليات وصعوبة المشكلة أو بعبارة أخرى أن الانفعال ينطوى دائماً على معنى الخيبة والفشل .

وللانفعال شكلان أو بعبارة أدق وظيفتان . وظيفة أولية فطرية ووظيفة ثانوية مكتسبة . فالانفعال فى شكله الأولى البدائى لا يزال سلوكاً آلياً غير أنه سلوك مضطرب غير مكيف ؛ هو سلوك محصور فى جسم المولود الحديث ، هو ارتداد الاستجابة إلى الجسم بعد انفصالها عن موضوعها الخارجى . فالانفعال فى شكله الأول هو مجرد الأوضاع التى تتخذها أجزاء الجسم مع ما يصحبها من تغيرات فسيولوجية مختلفة ، أى أن الوظيفة الأولية للانفعال هى تشكيل جسم الطفل بشكل معين . ولهذا الشكل الخاص — انقباض العضلات ، تغير ملامح الوجه ، احتقان الوجه بالدم ، الصراخ الخ . . . — تأثير فى الآخرين يؤدى بهم إلى القيام بسلوك معين نحو الطفل . غير أن هذا التأثير غير مقصود ، أى أن الحركات لا تزال مجرد حركات ثم لا تلبث هذه الحركات أن تتحول إلى تعبيرات تحت تأثير البيئة الاجتماعية ومختلف أساليب التربية ، أى أن الطفل سيتعلم أن يستخدم هذه الحركات كأداة تعبيرية للتأثير فىمن يحيط به من أشخاص ، أو بعبارة أخرى سيتعلم الطفل أن ينتظر أثر هذه الحركات وأن يتوقع الاستجابات التى سيقوم بها الآخرون لمعالجة الموقف بحيث يزول ما أثار الانفعال . وتلك هى الوظيفة الثانوية للانفعال التى ترمى إلى التأثير فى العالم الخارجى عن طريق التعبير الانفعالى .

تلك هى المرحلة الثانية فى نمو الحياة النفسية ، وسيؤدى التعبير الانفعالى إلى المرحلة الثالثة أو إلى الوظيفة الثالثة وهى التصور الذهنى والتفكير — وفى هذه

المرحلة تظهر قدرة الطفل على استخدام الرموز بدلاً من استخدام الأشياء نفسها ، وعلى استخدام المعاني لوضع خطة عمله في المجال الذهني قبل تنفيذها في المجال الحركي . سبق أن عرفنا السلوك الآلي بأنه غير مسبوق بروية وتفكير . فيوجد إذن نوع من التضاد بين الآلية والتفكير . ويوجد أيضاً تضاد بين الآلية والانفعال إذ أن الانفعال هو اضطراب الآلية ، كما أنه يوجد تضاد بين الانفعال والتفكير إذ أن الاضطراب الانفعالي يعوق التفكير ، كما أن تصور الحالة الانفعالية والتفكير فيها يؤديان إلى إخماد الانفعال .

ولكن يوجد ما يربط بين هذين المراحل الثلاث على الرغم مما يوجد بينها من تضاد . فقد ذكرنا أن الانفعال في شكله الأولي ضرب من الآلية ، ولكنها آلية غير ناجحة . وبينما من جهة أخرى كيف أن الانفعال في شكله الثانوي وبفضل وظيفته التعبيرية يمهّد الطريق إلى التصور الذهني . ونلمس هنا كيف يمكن تطبيق الوظيفة الدائرية اللولبية على هذه الحركة التي تبدأ عند الآلية وتنتهي عند التصور الذهني ، مع العلم بأن الآلية تظل الأساس الأولي الذي ستقام عليه الحياة النفسية كلها ، أي أن الفطري هو الأساس الأول لكل ما هو مكتسب .

وبناء على ما سبق تكون الوظائف النفسية الأساسية هي تبعاً لترتيب ظهورها في الزمان : الآلية والانفعال والتصور الذهني .

أما الذاكرة التي يعتبرها بعضهم ^(١) مستوى خاصاً من مستويات نمو الحياة

(١) في كتاب حديث في علم النفس لموريس برادين ظهر عام ١٩٤٣ (Maurice Pradines : Traité de Psychologie générale, T.I, Paris 1943) يرى المؤلف أن لنمو العقل (esprit) ثلاثة مستويات : مستوى الآلية (automatisme) ومستوى الذاكرة (mémoire) ثم مستوى العقل أو الفكر (l'esprit ou la pensée) وهي مستويات متفاوتة من حيث قيمة المعرفة . وأوجه الاعتراض على هذا التقسيم هي الآتية : استهال لفظ esprit بمعناه العام وهو الحياة النفسية عامة ، ثم استعماله بمعنى العقل الذي مجرد ويحكم ويستدل بناء على مبادئ عقلية كلية . لا يوجد فاصل مميز بين الآلية والذاكرة إذ أن الأفعال التعودية التي تتطلب الذاكرة هي نوع من الأفعال الآلية ، وفعلاً يتحدث المؤلف عن العادة في باب الآلية . ثم أن لفظ فكر pensée غير محدد في دلالاته ولا يوجد فاصل مميز بين الذاكرة لأن الذاكرة ليست مجرد إعادة الماضي كما هو بل تقتضي اختياراً ونشاطاً فكرياً . وإذا سلمنا بوجود تقابل بين الذاكرة وبين الفكر بأن الأول أساس المعرفة الحسية والثاني أساس

النفسية ، فهى فى الواقع وظيفه عامة تعمل فى كل مظهر من مظاهر الحياة . وهى فى نظر علم النفس التكاملى عامل التكامل النفسى من حيث هى تمثيل الزمن كخبرة حية ، وهى التى تربط بين جميع المراحل كما تربط بين لحظات الزمن ، هى عامل التكامل لأنها عامل ثبات ، كما أن الجهاز العصبى هو عامل التكامل البيولوجى واللغة عامل التكامل الاجتماعى .

والآن يمكننا أن نرى كيف ستتربط جميع الوقائع النفسية وفقاً لهذا النظام الطبيعى الذى يتمثل فى المراحل الثلاث الأساسية . وسنبين فيما يلى ترتيب هذه الوقائع وتسلسلها بادئين عند الفردية البيولوجية للوصول إلى غاية الحركة التكاملية كما تتمثل فى الشخصية .

وكما تحمل الجرثومة الملقحة فى طيات دقائقها عوامل الوراثة البيولوجية الخفية — وراثه الأجيال السابقة بل وراثه الجنس بأسره — تلك العوامل التى ستشرف على نمو الكائن الحى فى اتجاه معين حتى يحقق فى فرد كمال جنسه ، كذلك يحمل الإنسان فى ثنايا طبيعته عوامل الوراثة السيكلوجية التى لا تقل خفاء عن الأولى بل تفوقها غموضاً . فالإنسان فى مبدئه وفى جبلته الأولى مجموعة من العوامل الديناميكية التى تنشأ بفضلها الحركة وتتوجه ، وتسمى هذه العوامل ، اصطلاحاً فى علم النفس ، بالغرائر والميول والنزعات .

ويظل دافع السلوك فى حالة كمون إن لم يثرها منبه داخلى هو فى العادة فقدان التوازن العضوى الداخلى ، كما أنه يظل ناقص التنفيذ إن لم يغذ حركته ويوجهها مبهنة خارجى .

فإذا انتقل الفعل النفسانى من عالم السكون إلى عالم التنفيذ بفضل التنبيهات الداخلية والخارجية كانت الاستجابة لإرضاء الدافع الداخلى والمطالب الخارجية استجابة مباشرة أو غير مباشرة .

المعرفة العقلية القائمة على مبادئ العقل (raison) فهذا التقابل معدوم بين الآلية والذاكرة . وأخيراً يلاحظ أن هذا التقسيم يغفل الناحية الوجدانية للحياة النفسية فضلاً عن كونه استاتيكية جامداً لا يشير إلى الحركة التى تسير بنمو الحياة النفسية من بدايتها إلى غايتها وهذا على الرغم مما قرره المؤلف فى مقدمة كتابه عن أهمية المنهج التكويني (génétique) .

والاستجابة المباشرة تكون في مظاهرها البسيطة إقدام أو إحجام . ولسلوك الإقدام بطانة وجدانية هي الإحساس بالسار ، ولسلوك الإحجام بطانة وجدانية مضادة للأولى في مضمونها الكيفي هي الإحساس بالمكدر .

فإذا كان ما لدى الفرد من استعدادات ومعلومات كافياً لمواجهة الموقف بنجاح ، أى إذا كانت الآلية كاملة كانت الاستجابة مباشرة . وهى تتخذ أشكالاً مختلفة حسب طبيعة المنبه إذا كان بسيطاً أو مركباً ، موضعياً أو شاملاً . وهذه الأشكال هي الأفعال المنعكسة والانتحاءات والأفعال الغريزية والأفعال التعودية^(١) .

أما إذا كانت الآلية ناقصة غير صالحة لمواجهة الموقف لأسباب طارئة أو بتأثير التعب اضطرب السلوك وانفجر الانفعال .

غير أن الانفعال وإن كان في بعض الظروف مشطاً فإنه استجابة فاشلة لا تلائم غرض النشاط ولا تحقق نهايته . هو استجابة استبدالية ، مستوها دون مستوى الأفعال الناجحة التوافقية .

وفي هذه الحالة ترجأ الاستجابة حتى يستعد المرء من جديد لمواجهة الموقف وحتى يكتسب آليات جديدة عن طريق التعلم ، وهذه الآليات الجديدة عبارة عن إعادة تنظيم الآليات السابقة بعد إتمامها . وعمليات الاكتساب والتعلم طويلة شاقة تمر بعدة مراحل . وأول مرحلة من المراحل هي سلوك الانتظار والتوقع والبحث ولهذا السلوك سداته الوجدانية الخاصة هي الإحساس بالطريف والمرغب . وهذا الإحساس بالرغم من بساطته أكثر تعقداً من الإحساس بالسار أو الإحساس بالمكدر وهو من قبيل ما يسمى بالعواطف .

وللعواطف على العموم وظيفة هامة تشبه وظيفة الدوافع الفطرية : هي تغذية السلوك وتعديله وتوجيهه ، هذا إلى أن العواطف نفسها تقوى وتنشعب بتفاعلها مع السلوك .

أما عملية اكتساب المعلومات وتنظيمها واستخدامها في المجال الذهني والمجال

(١) أنظر في باب التعريفات في هذا العدد تعريف الفعل المنعكس والانتحاء .

الحركى أى فى مجال الفكر ومجال العمل المسبوق بالروية ، فستلزم نشاط بعض الوظائف السيكلوجية الهامة مثل الإدراك والذاكرة والتعلم .

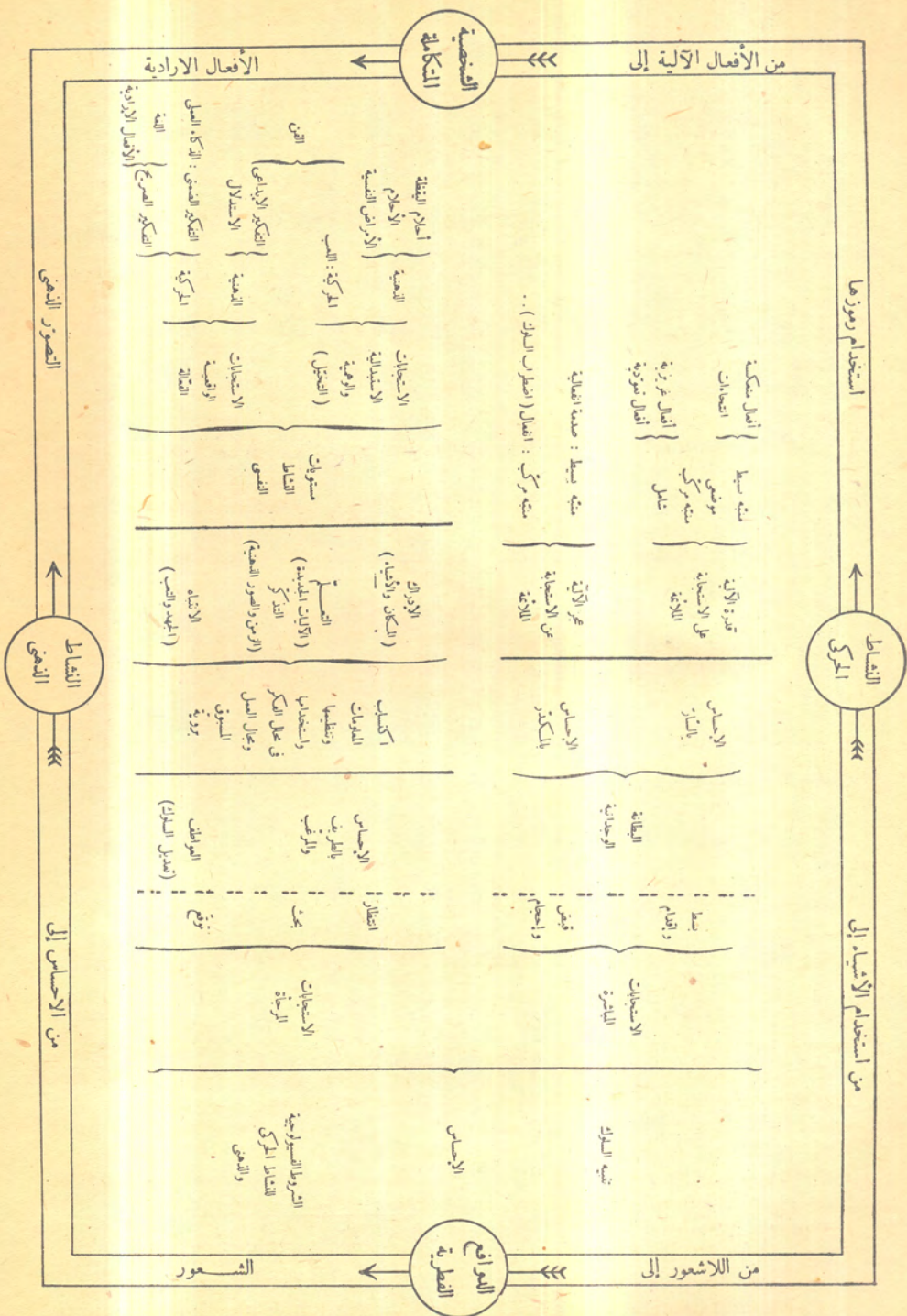
وللانتباه أو للنشاط ذهنى بوجه عام مستويات تختلف قوة وتوتراً وتنظيماً . وينجم عن هذه الاختلافات نوعان من الاستجابات : الاستجابات التى تنفذ فى عالم الوهم والخيال والاستجابات التى تنفذ فى عالم الواقع والعمل ، فالأولى استبدالية والثانية حقيقية . وتكون كل منهما إما ذهنية أو حركية . فمن الاستجابات الاستبدالية الذهنية أحلام اليقظة ، وأحلام النوم والأمراض النفسية^(١) أما اللعب فهو ضرب من ضروب الاستجابات الاستبدالية الحركية . وقد يكون الفن لوناً من ألوان اللعب .

ومن الاستجابات الحقيقية الذهنية نذكر الاستدلال والتفكير الإبداعى . أما الاستجابات الحقيقية الحركية ، فهى إما مصحوبة بتفكير ضمنى وهو الذكاء العملى أو مصحوبة بتفكير صريح مشعور به ، وهو التعبير اللغوى وأخيراً الأفعال الموجهة المقصودة أى الأفعال الإرادية .

بهذا رأينا كيف تنوعت المسالك التى اتخذتها الدوافع للظهور والنشاط والتنفيذ فاستعرضنا مراحل الفعل النفسانى ، وأشرنا إلى الوظائف الهامة التى تحقق نمو هذه المراحل وتصل بينها . على أنه قد بقى أن نشير إلى المرحلة الأخيرة التى سوف تتحقق خلالها الوحدة التى اضطررنا إلى تحليلها . وهذه الوحدة الجديدة التى تفوق فى ثرائها وغزارة موادها وتكامل تنظيمها الوحدة الفطرية الأولى هى الشخصية بشتى نواحيها الفردية والاجتماعية .

وقد أجهلنا فى الجدول الآتى مراحل رقى الحياة النفسية مع الإشارة إلى الاتجاهات العامة الأربعة .

(١) هذا التصنيف بفضل اعتماده على الحركة الطبيعية التى يتبعها الترقى فى مراتب الثلاث (البيولوجية والنفسية والاجتماعية) وبفضل توضيحه القوانين التوجيهية التى يسير الترقى بمقتضاها يلقى ضوء على تصنيف انحرافات السلوك والأمراض النفسية والعقلية وتفسير نشوئها وتطورها الشاذ . (أنظر فى هذا العدد مقال الدكتور صبرى جرجس باللغة الإنجليزية عن الشخصية السيكلوباتية) .



Résumé.

LA METHODE D'INTEGRATION ET LA CLASSIFICATION DES FAITS PSYCHOLOGIQUES.

Par

Youssef Mourad

Secrétaire Général de la Société Egyptienne Psychologie Intégrative.

Les principaux points traités dans cet article sont les suivants : l'explication scientifique et la classification ; la classification et le langage ; la classification traditionnelle des phénomènes psychologiques ; critique de cette classification telle qu'elle est suivie particulièrement dans les manuels de psychologie écrits en arabe ; la méthode d'intégration et enfin la classification des faits psychologiques par voie d'intégration.

Le caractère statique, fragmentaire et artificiel de la classification traditionnelle en affectivité, cognition, activité est dû à l'insuffisance de la méthode d'introspection. Cette méthode n'atteint que certains aspects du vécu qu'elle décompose en états et en moments ; elle reste incapable de retrouver et de saisir le mouvement qui sous-tend ces états et ces moments en expliquant la génération, le déroulement, ainsi que leurs mutuelles dépendances. D'où nécessité de rectifier et de compléter les données de l'introspection par la méthode génétique. Mais le passé et le présent, quand il s'agit du développement bio-psycho-social de l'homme, ne suffisent pas pour en donner une explication intégrale : il faut aussi introduire dans l'explication la notion de l'orientation de la croissance et du développement par les fins mêmes auxquelles ils tendent, et ce par l'analyse intégrale de la forme bio-psychique qui constitue le type humain.

La méthode d'intégration, au service d'une psychologie intégrale, ou de préférence « intégrative », considère l'étude de la personnalité comme le sujet central des études psychologiques, et son intégration par l'assimilation du temps vécu, comme l'aboutissement normal du développement bio-psycho-social de l'individu humain.

Le développement ne se fait pas par voie linéaire, mais *cyclo-hélicoïdale*, c'est-à-dire avec des régressions partielles, au cours desquelles un processus de maturation prépare le nouveau progrès et fait émerger une nouvelle étape plus différenciée. Chaque étape n'est pas considérée seulement comme le fondement de l'étape suivante, mais comme son signe. Au cours du développement qui mène de l'automatisme à l'émotion sous ses deux formes, proprioplastique et extéroplastique, et de cette dernière à la représentation mentale, se produit une intégration de plus en plus complète des diverses fonctions, et où les oppositions entre certaines fonctions, qui un moment paraissaient radicales, se trouvent elles-mêmes réduites et intégrées au service d'une fonction supérieure.

Quatre grandes lois de direction résument les divers processus qui vont concouramment contribuer à transformer l'individualité biologique de l'homme en une personnalité psycho-sociale intégrée.

Sur le plan de l'individualité biologique, celui des tendances, le développement va de l'inconscient au conscient. Sur celui de la personnalité en voie d'intégration, des actes automatiques aux actes volontaires. Sur celui du comportement moteur, de l'utilisation des choses à l'utilisation de leurs symboles. Et enfin sur le plan de l'activité mentale, de la sensation à l'idéation (image et concept).

Dans ce cadre et en tenant compte de l'orientation du développement on peut procéder à une classification *naturelle* des faits psychologiques, classification qui reproduit à la fois les étapes du développement psychique et l'histoire de l'acte psychologique complet.

Le schéma suivant donne une idée succincte de la classification proposée : tendances innées et leur activation ; l'excitation sensorielle ; la réponse immédiate et sa «doublure» affective : adéquation de *l'automatisme* ; son inadéquation d'où apparition de l'émotion ; d'où nécessité de différer la réponse ; la recherche, *l'émotion* et l'acquisition en vue de restructurer les possibilités de *pensée* et d'action ; les niveaux de l'activité, les réponses - substituts (imagination et jeu), les réponses effectives. Les deux plans moteur et mental sont constamment considérés. L'intégration dans sa forme la plus haute est réalisée dans l'acte volontaire.